من صدام الحضارات ..
إلى حوار الحضارات(١)

خصّ الله عزّ وجلّ أنبياءه وحدهم بمعرفة ما شاء لهم سبحانه أن يعرفوه من الغيب. أما نحن، معشر البشر العاديين، فليس بوسعنا التنبّؤ وأقصى ما يمكن أن نطمح إليه هو التوقّع. وحتى القدرة على التوقع لا تتوفّر إلا عند نخبة منّا، هم العلماء. وأبناء هذه القبيلة المجيدة لا يمتازون عنا بأي قدر من الحكمة؛ كل ما يميّزهم عنا هو قدرتهم على التوقّع. وأسارع فأقول إنه لا ينبغي التقليل من أهمية هذه القدرة. كل تقدّم مادي علمي، تمّ في الماضي أو سيتمّ في المستقبل، مرتبط بإمكانية التوقّع. بوسعنا أن نطير في الهواء لأن بوسعنا أن نتوقع ـ بدقة ـ مسلك عناصر معينة في ظل ظروف معيّنة. والقدرة ذاتها هي التي تمكننا من استخدام المايكروويف، ومن بثّ الأنباء في الأثير، ومن معالجة المرضى، ومن تدمير العالم.

العلم، بإختصار شديد، هو القدرة على التوقّع الدقيق. وقد كنتُ خلال صباي البريء مولعًا بالبحث عن علم للعلاقات

---

(١) محاضرة ألقيت في معهد «الصداقة وحل المنازعات» بالنمسا سنة ١٩٩٩م.

الدولية يستطيع توقّع الأحداث الدولية. قادني هذا الولع إلى عدة مدارس فكرية، مشهورة ومغمورة، قبل أن أعرف أني كنت أبحث عن سراب في الصحراء. كان أساتذة العلاقات الدولية موزعين على معسكرات ثلاثة. المعسكر الأول رأى أن مشكلة العلاقات الدولية تكمن في الطبيعة البشرية، ورآها المعسكر الثاني في طبيعة الدولة، أما الثالث فرآها في طبيعة المجتمع الدولي.

وكان العلاج المقترح يدور حول هذه المحاور الثلاثة. منظّرو الطبيعة البشرية آمنوا أنه لا بد من إدخال تغيير جذري على الطبيعة البشرية ليمكن تحقيق سلام دائم. أما منظّرو الدولة فعكفوا على إيجاد نموذج نظري مثالي للدول يمكن بتطبيقه - على الواقع - تحقيق السلام. أما أنصار المعسكر الثالث، وهم أكثر الباحثين واقعية، فقد اكتفوا بالقول إنه لا بد من وجود سلطة مركزية تمارس - على الساحة الدولية - ما تمارسه الدول من صلاحيات في المجتمع الداخلي. كل هذه النظريات، على نحو أو آخر، لا تزال باقية معنا. بقيت النظريات، أما تفاؤلي القديم بإمكانية الوصول إلى علم دقيق للعلاقات الدولية، فقد تبخّر بلا عودة.

أعرف الآن، أنه، بصرف النظر عن المنهج الذي نتبعه في البحث، لن يكون بوسعنا أن نتوقّع صراعات المستقبل. من هنا نجد «علماء السياسة» يعيشون، بمرارة خفية أو ظاهرة، منبعها إدراكهم أنهم ليسوا «علماء» بالمعنى الصحيح. عندما يتعلق الأمر بالسياسة الدولية وتطوراتها نصبح، جميعًا، من الهواة المتاجرين بالتكهنات، يستوي الحاصل على جائزة نوبل وجاره، الإنسان العادي. عندما كتب أينشتاين العظيم رسالة شهيرة لفرويد العظيم يطلب فيها تحليل أسباب الحروب جاء جواب المحلّل النفسي الأكبر لا يختلف ـ في مجمل إستنتاجاته ـ عن الجواب الذي كان يمكن أن يأتي من جاره، الإنسان العادي.

إن إدراكي هذه الحقائق يجعلني أتحدّث إليكم بكثير من التواضع ودون أن ادّعي لملاحظاتي أي درجة من الدقة العلمية. ومع التواضع تجيء الجرأة: ما دمت لا أدّعي العلم فبوسعي أن أتحدث بلا حذر!

لابد لي من البدء باعتراف صريح: أنا لا أعرف سبب الحرب. كل ما لدينا من تجارب، عبر التاريخ الطويل، يؤكد وجود عامل واحد في كل النزاعات البشرية، وهو السياسة،

وأعني بها الصراع من أجل القوّة. يقتتل البشر لأسباب دينية، أو لخلافات حدودية، أو بدافع الكرامة القوّمية، أو لاعتبارات اقتصادية، أو على كرة القدم، إلا أنه في كل حالة من هذه الحالات نجد قادة سياسيين يديرون النزاع ويستهدفون الحفاظ على قوتّهم أو زيادتها. لا أعرف صراعًا واحدًا لم يكن فيه لاعبون سياسيون. إن الجنود يندفعون لنصرة العقيدة الصحيحة، أو الجنس النقي، أو القضية العادلة أما قادة الجيوش فلديهم، دائمًا وأبدًا، أجندة سياسية قد لا تظهر للعيان وقت النزاع، ولكنها تبدو غاية في الوضوح بعد ذلك بزمن يطول أو يقصر.

إنني أرفض القول بوجود سبب واحد مسؤول عن الصراعات كلّها. الحروب ليست ـ بالضرورة ـ نتيجة خلافات دينية أو حضارية، وليست ـ بالضرورة ـ نتيجة ظروف اقتصادية، وليست ـ بالضرورة ـ نتيجة الجهل أو الغباء. إن أعظم الحروب خلال القرون الثلاثة الأخيرة دارت في الغرب، بين دول غربية، وأنتجت مئة مليون قتيل. حتى منظّر صدام الحضارات نفسه يعترف أن هذه الصراعات كانت «حروبًا

أهلية غربية». [1] لم تتمكن الوحدة الحضارية الغربية أن تمنع اندلاع أكثر الحروب دموية في التاريخ. إلا أننا لا يجب أن نقسو على الغرب وحده. في حضارتي العربية/الإسلامية كانت هناك حروب عربية/عربية وإسلامية/إسلامية خلّفت من الضحايا أضعاف ما خلّفت الحروب مع غير العرب وغير المسلمين. وكل حرب أهلية عرفها التاريخ تثبت أن الوحدة الحضارية لا تعني الوقاية من النزاع. وإذا كان التوافق الحضاري لا يشكل ضمانًا ضد الحرب، فلنا - بمفهوم المخالفة - أن نستنتج أن التنافر الحضاري لا يؤدي - بالضرورة - إلى الحرب. السياسة هي المتّهم الأول والأخير في كل نزاع بشري. هل يعني هذا أني أعود إلى نظرية السبب الواحد التي قلت - قبل قليل - أني أرفضها؟ لا أعتقد ذلك.

إن السياسة نسيج غريب معقد من عوامل متشابكة متداخلة بحيث يصعب علينا أن نعتبرها «سببًا واحدًا». وتقتضي الأمانة العلمية أن أعترف أن كل الجهود التي بذلت لتفكيك السياسة إلى

---

(١) انظر: Samuel P. Huntingdon" The Clash of Civilizations" Foreign Affairs, Summer 1993, P.23

عواملها المختلفة باءت بالفشل، وبقيت السياسة مفهومًا غامضًا، يفسّر كل شيء، ولا يفسّر شيئًا.

ليس بوسعنا، إذن، أن نتفهم، على نحو واضح، كيف تؤدي السياسة إلى إشعال الحروب. إلا أن بوسعنا أن نجرّد السياسة من بعض أسلحتها التي تستعين بها لإذكاء الفتيل، وإبقاء النيران مشتعلة. وتأتي الحضارة في مقدمة هذه الأسلحة. سوف أحاول، في هذا الحديث، أن «أحيّد الحضارة» بحيث يصعب على السياسة استخدامها ضمن معدّاتها الفتاكة في النزاعات. وأرجو أن تسمحوا لي أن أبسّط الأمور إلى أقصى حد ممكن. سأسمّي ملاحظاتي: «عشر خطوات عملية لإثراء الحوار بين الحضارات: دليل سهل لاستخدام الأفراد والمؤسسات والحكومات».

قبل تعداد هذه الخطوات لا بُدّ أن أقول إن من الضروري ألا نخلط بين عملية الحوار، وعملية جمع المعلومات. رغم إيماني العميق بجدوى الحوار، فأنا أتحاشى كثيرًا من اللقاءات التي تزعم أنها قنوات للحوار، والسبب أنني أشك في نزاهة الغرض. كثير من الندوات، رغم المظهر الأكاديمي، ورغم وجود

واحد أو اثنين من المفكرين المعروفين، ليست - في حقيقتها - سوى محاولات للتجسس الحضاري. وأنا أنفر، بصفة خاصة، من اللقاءات التي تنظّمها وزارات الدفاع ووزارات الخارجية. التفت حولي في لقاءات كهذه فأجد البيروقراطيين منهمكين في تدوين ملاحظاتهم، تضيء وجوههم بالفرح كلما تصوروا أنهم عثروا على «معلومة حضارية مفيدة». لا شك لديّ أن تسمية هذه اللقاءات التجسسية حوارًا حضاريًا هو إهانة للحوار نفسه، ولذكاء الحاضرين.

إن الفرق بين الحوار والتجسس لا يتضح إلا إذا عرفنا هدف اللقاء. في الحوار لا توجد أي أهداف سياسية وطنية؛ الهدف الوحيد هو السلام. أما في التجسس، فالهدف إضعاف الطرف الآخر، أو القضاء عليه نهائيًا. وكثير من المراكز، رغم انتماءاتها الأكاديمية، هي، في الحقيقة، مراكز لجمع المعلومات. وكثير من الدراسات التي تدعي الموضوعية وتحمل عناوين مثل «العقل الإسلامي»، أو« الشخصية اليهودية»، أو «الذهنية الآسيوية» تتّجلى، بعد التحليل، عن جهود تندرج تحت بند «اعرف عدوك!» مثل هذه المراكز، ومثل هذه الدراسات،

توجه ضربات موجعة، وربما قاتلة، للحوار الحقيقي، الذي سوف أنتقل إليه الآن.

أولاً: عندما يوصف نزاع ما بأنه «صدام حضارات» لا تتسرع في قبول هذا الوصف، وحاول أن تبحث عمّا وراء القشور الخارجية. لنأخذ ـ على سبيل المثال ـ موضوع الساعة: الصدام بين الإسلام والغرب. علينا ـ إذا أردنا الدقة ـ أن نترك تعميمًا كهذا وأن نتحدث عن صراع بين دول إسلامية بعينها ودول غربية بذاتها.

تقول لنا الأرقام إنه من بين أكثر من خمسين دولة إسلامية لا يوجد سوى بضع دول تعتبر نفسها في حالة مواجهة مع بضع دول غربية. وفي كل حالة من حالات المواجهة هذه نجد أسبابًا سياسية، لا حضارية، تسبّب الاحتكاك. لم تكن للعراق أي مشكلة مع الغرب حتى غزا الكويت. وإيران تمتعت بعلاقات دافئة مع الغرب حتى بدأت تصدير الثورة. وأسامة بن لادن كان، ذات يوم، متعاونًا مع وكالة الاستخبارات المركزية في الحملة ضد السوفييت في أفغانستان. في هذه الحالات جميعها، عندما انفجرت الخلافات السياسية، استُغلّت الفوارق

الحضارية أسلحة في النزاع. وهكذا أصبحت الولايات المتحدة في نظر إيران الشيطان الأكبر، وهذا اسم ذو دلالات دينية واضحة. وفجأة، ظهرت في الغرب كتب لا تعد وتحصى تتحدث عن «الإسلام المتشدد» أو «الإسلام الأصولي». وعندما رأى العراق نفسه يواجه تحالفًا ضاربًا قوامه قوة الغرب العسكرية تخلّى، بسرعة البرق، عن شعاراته العلمانية القديمة وتبنّى الخطاب الديني. ظهرت «الله أكبر»، فجأة، على الأعلام العراقية وقيل وقتها إن العبارة الأصلية كُتبت بخط صدام حسين نفسه. واتّبعت قصة أسامة بن لادن النمط نفسه. أمريكا، حليفة المجاهدين، تحولت في نظر المجاهدين القدامى إلى عدوة الإسلام والمسلمين، وبن لادن، حليف الاستخبارات المركزية، انقلب إلى عدو الأمريكيين الأول.

وهناك أمثلة أخرى عديدة في أماكن كثيرة من العالم. الكاثوليك والبروتستانت لا يقتتلون في لندن أو دبلن ولكنهم يقتتلون في شمال إيرلندا. والهندوس والمسلمون يتعايشون في كل مكان إلا حيث ينشب النزاع السياسي. وعاش اليهود والمسلمون قرونًا طويلة بلا مشاكل حتى نشأت قضية فلسطين.

ثانيًا: لا تصدق أن هناك حضارة متجانسة كل التجانس بحيث تنطبق عليها كل التعميمات. حتى داخل الدين الوحيد هناك عدة مذاهب. وقد تجد تجانسًا حضاريًا، في مواضيع معيّنة، بين عناصر تنتمي إلى حضارات مختلفة. هناك ـ على سبيل المثال ـ مواقف أخلاقية تجمع بين المسلمين السلفيين والكنيسة الكاثوليكية، مثل النظرة إلى الجنس والمخدرات وقتل الرحمة وتنظيم النسل، رغم أنها تفصل الكنيسة الكاثوليكية عن عدد كبير من المسيحيين. واللغة عامل مُوحّد إلا أنها يمكن أن تكون سببًا من أسباب الفرقة. هناك تلك الطرفة الشائعة عن بريطانيا والولايات المتحدة وكيف «فرقتهما لغة واحدة». وفي العالم العربي هناك لهجات عامية عديدة سيطرت إلى درجة تجعل اللغة العربية الفصحى عاجزة عن القيام بدورها التوحيدي. كثير من العرب لا يستطيعون فهم بعضهم البعض إذا تحدثوا بلهجاتهم الدارجة.

وإذا كانت الحضارات لا يمكن أن تتجانس كليّة فمن المنطقي أنه يندر، إن لم يستحل أن تجد حضارة تتكلم بصوت واحد. هناك اتجاهات رئيسية داخل كل حضارة، بالإضافة إلى اتجاهات مختلفة تتبناها جماعات تخرج من الخط الرئيسي.

ومن المؤسف أن الأغلبية الصامتة لا تلفت انتباه وسائل الإعلام التي تفضّل التركيز على الأقلية المتشنجة ذات الأفكار المتطرفة. إن الأخبار التي تصلنا من داخل حضارة ما هي - في الغالب - أخبار الغلاة والمتشددين.

ثالثًا: لا تصدق كل ما تسمعه أو ما تقرؤه عن الحضارات الأخرى. وفي هذا الصدد، سأضرب لكم مثلا لا يخلو من طرافة. كل غربي قابلته، بلا استثناء، يعتقد أن من واجب الضيف حين يدعوه مضيف عربي إلى الطعام أن يأكل عين الخروف، ويتصور أن المضيف سيشعر بالاهانة لو رفض الضيف هذا التكريم. هذه أسطورة بلا أي أساس. العرب أنفسهم يأنفون من أكل عين الخروف، فضلاً عن تقديمها لضيف يودون إكرامه. لا أدري هل نشأت الأسطورة في حضن هوليود أو في خيمة شيخ بدوي مشاغب، إلا أنها تحولت إلى حقيقة يصدّقها كل الغربيين. استمعت إلى عدد من هؤلاء يقصّون عليّ كيف عانوا الهول وهم يلتهمون عين الخروف تقديرًا للمضيف. وهناك مثل طريف آخر، يعكس الجانب الآخر من الصورة. روى لي صديق من قطر عربي شقيق أنه سافر إلى أوروبا لأول مرة بعد أن أنهى دراسته الثانوية في بلاده. خلال إقامته في الفندق

دخلت وصيفة حسناء لتنظيف الغرفة. ما كان من صاحبنا إلا أن تقدم منها، على الفور، وقبّلها بلا مقدمات. كان رد الفعل صفعة مدوّية على وجهه. استغرب الصديق هذا التصرف. كان يعتقد، بوحي الأفلام السينمائية التي شاهدها، أن تقبيل أي فتاة يعجب بها المرء هو السلوك المقبول في الغرب. كان الصديق المسكين ضحيّة بريئة من ضحايا «الصدمة الحضارية».

لا يهم موضوع القصتين الطريفتين، بقدر ما يهم أن السلوك نشأ عن إعتقاد راسخ يتعلق بالطرف الآخر. وكثير من المعتقدات التي نعتقها عن الحضارات الأخرى نابعة من معلومات خاطئة أو معلومات مضلّلة. خلال الحرب، أول ما يقوم به الطرف المحارب هو نزع الصفة الإنسانية عن الحضارة التي ينتمي إليها العدو.(١) تنتهي الحروب، ولكن النماذج النمطية المشوهة التي تنتجها تبقى سنين طويلة بعدها.

رابعًا: احذر التعميم الشامل الذي يبنى على تجربة

---

(١) خلال حرب صدام حسين مع إيران، وهي دولة مسلمة، كان من الضروري أي يخرجها، نهائيًا، من دائرة الحضارة الإسلامية: أصبحت المواجهة مع «المجوس». وخلال غزو الكويت، وهي دولة عربية، كان لا بُدّ من العثور على اسم جديد للأعداء الجدد الذين تحولوا، بين عشية وضحاها من «عرب» إلى «أعراب»!

شخصية عابرة. ينزع البشر، باستثناء العلماء المدرّبين، إلى تحويل تجاربهم الشخصية إلى قوانين حديدية. العربي الذي يذهب إلى روما، وتُسرق حقيبته في المطار، أو يطالبه سائق سيارة الأجرة بمبلغ يفوق المبلغ المعتاد يعود مقتنعًا أن كل الإيطاليين لصوص وربّما سحب الصفة على الأوروبيين كلهم. والمسلم الملتزم الذي يذهب إلى مكان من أماكن اللهو السياحية في الغرب يعود مقتنعًا أن الغرب، من أقصاه إلى أقصاه، ليس سوى بؤرة للانحلال والتفسّخ. وتجد أمريكيًا يزور الجزيرة العربية ويلاحظ خجل الناس عند التعامل مع غرباء، وما يعقب الخجل من تحفظ، فيرجع مقتنعًا أن الناس يكرهون الأجانب. ومن ناحية أخرى، ترى عربيًا يزور أمريكا فيفاجأ أن الأمريكيين الذين يلتقي بهم لم يسمعوا باسم دولته من قبل. يعود صاحبنا بحكم قاطع مؤداه أن كل الأمريكيين جهلة أغبياء.

لم أكن لأتطرق إلى موضوع يبدو قليل الأهمية لولا أنني لاحظت، بنفسي، كيف يقع الدبلوماسيون المحترفون في فخ التعميمات الخاطئة. تقارير هؤلاء الدبلوماسيين تصل إلى حكوماتهم، وسرعان ما يتحول تحيّز شخص واحد إلى عامل يؤثر في رسم سياسة دولة. كنت دومًا أقول إن على الدولة

بمجرد أن يظهر أحد دبلوماسييها تحيّزًا ضد الدولة التي يعمل فيها أن تبادر بنقله إلى مكان آخر. أستطيع أن أروي لكم قصصًا لا تنتهي عن بلوماسيين سُرقت بيوتهم، أو دبلوماسيين خُدعوا في معاملة، أو دبلوماسيين عُوملوا بوقاحة في المطار، وما ترتب على هذه الحوادث الفردية العادية من أضرار في العلاقات بين دولتين. الحضارة بأكملها، لا الفرد ولا الأفراد، تُحمّل المسؤولية عن التصرف الشائن الذي قوبل به الدبلوماسي.

خامسًا: عندما تنظر إلى الحضارات الأخرى، حاول أن تبحث عن وجوه الشبه بينها وبين حضارتك بدلاً من التنقيب عن وجوه الاختلاف. كان دارسو الأنثروبولوجيا في الماضي يبنون شهرتهم الأكاديمية على الدراسات التي يقومون بها للمجتمعات «المتخلّفة» وما تكشف عنه الدراسات من سلوك «همجي» يختلف تمامًا عن سلوك المتحضرين. ما أسهل الحصول على رسالة دكتوراه موضوعها حياة قبيلة نائية منعزلة، وإثبات مدى اختلافها عن حياة الناس في عواصم الغرب. وعلى النقيض، لا تجد باحثًا حصل على شهرة أكاديمية لأنه برهن على أن الأمور في المجتمعات «البدائية» لا تختلف

كثيرًا عن الأمور في المجتمعات «المتقدّمة». حقيقة الأمر أن البشر الذين يختلفون على موضوع أو موضوعين يتفقون على مئات المواضيع. جميع الأديان، في التحليل النهائي، تقوم على ركيزتين أساسيتين: الإيمان بخالق الكون والتعامل الحسن مع مخلوقاته، إلاّ أن وجه الشبه هذا يندر أن يذكر بينما تركّز البحوث كلها على وجوه الخلاف. وكل المجتمعات تحاول، بطرقها الخاصة، أن تحقق لمواطنيها الرفاه والعدالة والرخاء. ونحن جميعًا نتحرك مدفوعين بالغرائز البشرية ذاتها: كالكره والحب والتكاثر واللعب. تختلف المظاهر الخارجية، هناك فوارق أساسة بين كرة القدم البريطانية وكرة القدم الأمريكية، إلا أن غريزة اللعب لا تتغير.

سادسًا: عندما ترى في الحضارات الأخرى أساليب للسلوك تغاير الأساليب المتّبعة في حضارتك حاول أن تعرف أسباب التغاير. البشر جميعًا محكومون ـ إلى حد كبير ـ بحتميات التاريخ والجغرافيا، وكثيرًا ما يتصرفون على نحو معين نتيجة وجودهم في زمان بعينه ومكان بذاته. إلا أننا ننزع إلى أن نجعل من تصرفاتنا النابعة من بيئتنا وتاريخنا المقياس الوحيد الذي يحكم بموجبه على الحضارات الأخرى. في

الجزيرة العربية قبل ظهور البترول كان الناس يعيشون على حافة المجاعة. في هذه الظروف يصبح الامتناع عن تقديم الطعام والماء للضيف في الصحراء بمثابة الحكم عليه بالإعدام. من هنا ـ وبحكم الضرورة ـ أصبح الكرم أنبل الصفات في الحضارة العربية، وكان العرب ـ عبر التاريخ ـ يعتبرون البخيل إنسانًا شريرًا يستحق أقسى الشتائم. حتّى عندما زالت الظروف التي أعطت الضيافة هذا المقام العالي، ظل العرب متعلقين بهذه الخصلة. ولا يكتفي العرب بذلك بل ينزعون إلى انتقاد أي حضارة لا تولي الضيافة الاهتمام نفسه. استمعت إلى مواطن عربي بعد مواطن عربي ينتقد مواطني هذه الدولة أو تلك لأنهم قصّروا في تقديم ما تقتضيه الضيافة على الطريقة العربية.

على سبيل المثال، ينتقد كثير من العرب أصدقاءهم من اليابانيين لأنهم يدعونهم إلى الطعام في المطاعم ويندر ـ إن لم يستحل ـ أن يدعوهم إلى المنازل. وينسون أن الشقق في اليابان غالبًا ما تكون صغيرة مزدحمة وبعيدة عن وسط العاصمة حيث يقيم الضيوف. ويلقى الألمان انتقادًا مريرًا من ضيوفهم العرب لأنهم يُدعُون إلى العشاء فلا يجدون سوى الوجبة

الألمانية التقليدية المكونة من مختلف أنواع السجق. وينسى الضيوف أن مضيفهم يعمل وزوجته تعمل، ولا يوجد في البيت طباخ أو طباخّان لإعداد الوليمة. من ناحية أخرى، ينتقد الضيوف الغربيون مضيفيهم العرب، ويرون أن كرم الضيافة العربي يتجاوز كل الحدود المنطقية. يستغرب هؤلاء الضيوف عندما يرون كثرة الطعام، وينسون أن هذا ما تتطلبه الضيافة العربية التقليدية. ولا يستطيع الغربيون أن يفهموا كيف يستدين العربي مبالغ طائلة لكي يتمكن من إكرام ضيوفه، ناسين أن المجتمع يدين المضيف البخيل ولا يدين المضيف المستدين. في الغرب تعتبر الدعوة على العشاء أمرًا شخصيًا لا يهم سوى طرفيه، أمّا في العالم العربي فمثل هذه الدعوة شأن عام، يقود إلى مديح جماعي أو نقد جماعي.

سابعاً: إحذّر الوقوع في مزلق النظريات القائمة على الشخصية الوطنية». كنت في أيام شبابي الأول مفتونًا بمفهوم الشخصية الوطنية الذي يتمتع بجاذبية لا يستطيع أحد إنكارها. هذا المفهوم يزوّد المرء بمفتاح واحد يمكنه - بكل سهولة - من التغلغل في أعماق أي حضارة. إلا أني سرعان ما

اكتشفت أن هذا المفهوم يعاني مشكلتين قاتلتين. المشكلة الأولى أن كثيرًا من نظريات الشخصية الوطنية لم تكتشف وتستخدم إلا خلال الحروب. وهكذا تحول الألمان إلى عدائيين بالفطرة واليابانيون إلى غادرين بالطبيعة، والإيطاليون إلى جبناء بالولادة، وتحول البريطانيون إلى تجسيد بشري للمكر والخبث، وهلمّ جرا. من الواضح أن مثل هذه الحرب النفسية لا يمكن أن تعتبر دراسة موضوعية. والمشكلة الثانية هي أنه حتى عندما تكون التعميمات عن قومية ما صحيحة فإنها لا تعني الكثير. من المعروف لدى الكافة أن الأمريكيين متبسطون أكثر من الصينيين، وأن الإيطاليين يستخدمون أيديهم للإشارة أثناء الكلام أكثر من البريطانيين، وأن العرب يحبون الأرز أكثر من الإسكندنافيين. بإمكاننا أن نكتب قوائم طويلة تضم مئات العادات التي نجدها عند هذا الشعب أو ذاك، ولكن هل يمكن لهذه الدراسة أن تقول لنا شيئًا مفيدًا؟ أشك في ذلك. لا نستطيع أن نعرف شيئًا عن صفات الإنسان الحقيقية، عن نفسه الداخلية، بمجرد أن نعرف ماذا يأكل وكيف يلبس وما هي هواياته.

لا أود أن أطيل في هذه النقطة لأن نظرية الشخصية الوطنية، لحسن الحظ، تجاوزها الزمن ولم تعد، الآن، مقبولة علميًا. ومع ذلك لا يزال البعض، من رجال الصحافة بالذات، حريصين على إعادة هذا المفهوم الميت إلى الحياة. والغريب أن هؤلاء الصحفيين يتحدثون بثقة مطلقة عن شخصية هذا الشعب أو ذاك ومرجعهم الوحيد ما يسمعونه من سائقي سيارات الأجرة. مثل هذه المحاولات يجب أن تقابل بما تستحقه من تجاهل.

ثامنًا: من الضروري أن تتذكر أن المفهوم نفسه قد يعني أشياء مختلفة في الحضارات المختلفة. لنأخذ - على سبيل المثال - الشرف وهو قيمة تكّن لها الحضارات كلّها الكثير من الاحترام. إن مفهوم الشرف في الغرب نتيجة ثورات اجتماعية متلاحقة، لم يعد مرتبطًا بالسلوك الجنسي. وعلى العكس، نجد الشرف في المجتمعات الشرقية وثيق الصلة بهذا السلوك. وهكذا نجد الشرقي يعتبر المجتمعات الغربية، بقضها وقضيضها، محرومة من الشرف. في الجانب الآخر من الضرورة نجد الغربي عاجزًا عن فهم ردود الفعل الشرقية الشديدة في مواجهة الانحرافات الجنسية. كل من الشرقي

والغربي ينطلق من مفهوم واحد إلا أن كلا منهما يفهمه على وجه مختلف تمامًا.

ونجد الأمر نفسه ينطبق على مفهوم «القيم العائلية». كل الساسة في الغرب يعدون بإحياء هذه القيم وتقويتها. وكل الساسة في الشرق يتباهون بوجود هذه القيم في مجتمعاتهم، المفهوم هو نفسه، إلا أن العائلة الغربية تختلف عن العائلة الشرقية، والقيم، تختلف، بالضرورة، بين العائلتين. في الغرب لا توجد سوى العائلة الصغيرة التي تضم الأبوين وطفلاً أو طفلين، والتي تصغر أكثر وأكثر بمضيّ الزمن. أكثر من ربع العائلات في الغرب لا يوجد فيها سوى «والد واحد»، إمّا الأم وإمّا الأب.

أما في الشرق فالعائلة تعني وحدة أضخم بكثير، وقد تتسع فتشمل العشيرة وتتسع أكثر فتشمل القبيلة. في الغرب، لا تعني قيم العائلة، أكثر من الحب والدعم المعنوي، أمّا في الشرق فمطالب المرء من عائلته لا تنتهي. يتوقع المجتمع الشرقي من الفرد أن يعين عائلته ماديًا إذا كان قادرًا، وأن يستعين بها ماديًا إذا كان محتاجًا. وتتوقع العائلة في الشرق من أي فرد من أفرادها يجد نفسه في منصب عام أن يستخدم نفوذه لتعيين

أكبر قدر ممكن من أفراد العائلة أو العشيرة في وظائف عامة. وهكذا فما يبدو في الغرب محسوبية وفسادًا لا يبدو في الشرق سوى استجابة منطقية ضرورية لمتطلبات «قيم العائلة».

تاسعًا: تذكّر أن عددًا من الشرور الاجتماعية هي شرور عابرة للحضارات. هناك مثل صارخ هو الفقر. الفقر يمكن أن يفسد، والفقر المطلق يمكن أن يفسد بصفة مطلقة. عبر العالم كله نجد ظواهر البغاء وعمل الأطفال بالسخرة والرق البشري الجديد، وهذه كلها أعراض تنطلق من مرض اجتماعي، لا حضاري، هو الفقر. عندما يزور رجل أعمال غربي دولة إفريقية أو آسيوية ويرى جموع الشحاذين وموظفي الجمارك الذين يطالبونه بالبخشيش، ورجال المرور المبتسمين في انتظار مبلغ مالي، يطوف بباله، على الفور، أنه يتعامل مع حضارة فاسدة. حقيقة الأمر، أن ما شاهده لم يكن إلا صراعًا مستميتًا من أجل العيش، أما الفساد الحقيقي فيتجلى في ما يعقده هو من صفقات مشبوهة مع نظرائه في هذه الدولة. ذات يوم، كان الكثيرون يعتقدون أن الغرب معقل المخدرات والجرائم الجنسية والعنف، إلا أنه، لسوء حظ العالم بأسره، أصبحت هذه الأمراض «معولمة» تمامًا.

عاشراً: تذكر أنه لا يمكن أن تخلو أي حضارة من قدر من التناقض بين المبادئ والسلوك العملي. حقيقة الأمر أني أشك في وجود أفراد ناجين من هذا التناقض بإستثناء أولياء الله الصالحين. نحن جميعًا نرى بأعيننا الطبيب الذي يدخن بشراهة ويطلب من مريضه الامتناع عن التدخين، والقاضي الذي تضبطه الشرطة متلبسًا بتهمة السرعة، والنجّار الذي يترك بابه، حسب تعبير المثل العربي الدارج، مخلوعًا. وفي حياتنا اليومية نمارس أنواعًا من الكذب والنفاق دون أن نشعر. عندما يرن جرس التليفون يطلب الواحد من ابنه الصغير أن يردّ ويقول: إن والده غير موجود. عندما تكون لدينا مستحقات نسارع في طلب تسديدها، ونتباطأ عن تسديد ديوننا. يبدو أن الهوة بين المثل الأعلى والممارسة جزء من قدر البشر.

ولا يختلف الأمر حين ننتقل من الأفراد إلى الحضارات. كثير من المراقبين يقضون وقتًا كبيرًا في رصد التناقضات التي يلاحظونها في الحضارات الأخرى. وهكذا نجد في العالم الثالث من يذكّرنا أن الغرب الذي لا يكف عن التشدق بحقوق الإنسان هو الغرب نفسه الذي استعمر بقية العالم ونهبه عبر

قرون طويلة. وينتقم المراقبون الغربيون حين يقولون إن أكثر المجتمعات انغماسًا في الماديات هي المجتمعات الشرقية التي تزعم أنها أكثر المجتمعات زهدًا وروحانية، وهلم جرا.

كل الخطوات التي تطرقت إليها في ما سبق لن تنتج أثرًا في غياب عامل حاسم هو التسامح الذي يمثل حجر الزاوية في مبنى الحوار. يزدهر الحوار وينمو في وجود التسامح، ويتحول الحوار إلى أكذوبة عندما يختفي التسامح. إن الحوار، بطبيعته، هو تعامل بين طرفين متساويين. في اللحظة التي يحاول فيها طرف إملاء إرادته على الطرف الآخر تتحول العملية، تلقائيًا، من حوار إلى غزو حضاري. وهنا نقطة حساسة تمس العلاقات بين الشرق والغرب. يشعر الشرق أن الغرب يريد أن يفرض عليه معتقداته، ويشعر الغرب أن الشرق لن ينهض إلا بتبني هذه المعتقدات. وهذه المشكلة تتمحور أساسًا حول مفهوم حقوق الإنسان.

إنني أعتقد أن معركة حقوق الإنسان، على المستوى الفكري، حسمت لصالح هذا المفهوم. لم يعد هناك من يعارض حقوق الإنسان في مجملها. ولا يوجد مفكر جاد يزعم أن بعض

الحضارات متخلفة بالفطرة، على نحو يجعلها غير قادرة على تبني الديمقراطية والعدالة وحماية الكرامة البشرية. إلا أن المشكلة لا تنحصر في خطب تؤكد، يوميًا، الالتزام بحقوق الإنسان. المشكلة الحقيقية هي تحويل المبادئ النظرية إلى حقائق ملموسة نراها في حياتنا اليومية. ولكي نتوصّل إلى هذا الإنجاز لا بد من توفر عاملين: الأول، هو التجهيزات الأساسية، والثاني هو الزمن. تمكن الغرب من تحويل المبادىء إلى واقع لأنه تمكن من تطوير المؤسسات الضرورية عبر قرون طويلة. إلا أن الغرب يتوقع من الشرق أن يحول أنظمة اجتماعية استعمارية أو قبلية أو اقطاعية إلى أنظمة ديمقراطية عصرية، بين عشية وضحاها. من البديهي أن هذا ليس مطلبًا عادلاً والإصرار عليه سوف يؤدي - بالضرورة - إلى نتائج عكسية.

علينا أن نعي تجربة الغرب الذي طوّر النماذج المعاصرة للأنظمة الديمقراطية. مرت قرون طويلة بين صدور «الماجنا كارتا» وبين استقرار الصلاحيات في مجلس العموم على النحو الذي نراه اليوم. ويرى رئيس الوزراء البريطاني، توني بلير، أن النظام السياسي في بلاده لا يزال يحتاج إلى إصلاحات دستورية واسعة.

في الولايات المتحدة، بعد نصف قرن من بدأ الثورة التي أعلنت أن جميع البشر ولدوا متساوين، كان الرقيق لا يزال منتشرًا في كثير من الولايات. تطلّب الأمر حربًا أهلية دامية لإلغاء الرقيق، وقرنًا كاملاً من النضال قبل أن ينتهي التمييز العنصري القانوني - أما التمييز غير القانوني فالمعركة ضده لا تزال مستمرة، ولعلها ستظل إلى الأبد.

وهناك الثورة الفرنسية التي أعلنت أنبل المبادئ، ثم مرّت بفترة من حمامات الدم المرعبة، ثم أنتجت إمبراطورًا همه الغزو والتوسع. مرّت عقود من التجارب قبل أن يستقر النظام السياسي الفرنسي. لا أقول إن علينا في عصر التغييرات السريعة هذا أن ننتظر قرونًا لتحقيق الديمقراطية ولكنِّي أقول إنه حتى في عصر السرعة لا يمكن إنتاج «ديمقراطية جاهزة» على غرار «القهوة الجاهزة».

إن الوقت والمؤسسات هما الشرطان الضروريان لتحويل حقوق الإنسان إلى حقائق سياسية. بدون وجود مدارس، يبقى حق الإنسان في التعليم مزحة سخيفة. وبدون تنمية، يبقى الحق في العمل وهمًا. إن الدول الفقيرة لا تحتاج إلى مواعظ

عن حقوق الإنسان ولكنها تحتاج إلى التفهم والمساعدة. إن الإدانة تقود إلى إدانة مضادة، وهكذا تنشأ دوامة من المهاترات تغرق في خضمّها المبادئ الإنسانية العظيمة.

وحاجتنا إلى التسامح لا تتضح في أي مجال بقدر ما تتضح في هذا المجال بالذات. إن الغرب يسمح لنفسه بالكثير من المرونة في التعامل مع حقوق الإنسان. الإعدام عقوبة مرفوضة في أوروبا الا أنها مقبولة في الولايات المتحدة. والتمثيل النسبي، بمعنى أن تؤخذ بعين الاعتبار أصوات المواطنين الذين صوتوا للمرشح البرلماني المهزوم، تطبق في بعض الديمقراطيات دون البعض الآخر. والعقوبات على الجريمة الواحدة تتراوح تراوحًا هائلاً بين الدول الغربية. حمل السلاح يُعد حقًا مشروعًا في الولايات المتحدة، وجريمة عقوبتها السجن في بريطانيا. ونظام المحلّفين معروف في الدول الأنجلوسكسونية دون غيرها، هذا التسامح الذي يمارسه الغربيون بعضهم مع بعض، يجب أن يصبح القاعدة في تعامل الغربيين مع بقية العالم.

لقد كان من حظي أن أتعامل مع حضارات عديدة بقيم مختلفة، وأجد نفسي متفقًا مع المقولة الشائعة «إن الشيطان

يكمن في التفاصيل». من هنا أرى أن البشر يحسنون صنعًا لو تناسوا التفاصيل التي يختلفون عليها، وسعوا إلى العمل معًا لترسيخ المبادئ التي يجمعون عليها. إنني أعتقد أنه مع تمكن الدول الفقيرة من إقامة المزيد من المدارس والمستشفيات والطرق، بعبارة أخرى من تحقيق تنمية فعلية، وبناء مجتمع مدني حقيقي ستضيق الهوة بين الشرق والغرب. إن التفاوت الهائل المجحف بين الأغنياء والفقراء هو المسؤول عما يشوب علاقات الشرق بالغرب من توتّر، وليست الفوارق الحضارية التي يراد جرها، بالقوة، لتتحول إلى «صدام حضارات» يخفي وراءه المجرم الحقيقي: السياسة.